

سورة الإسراء

﴿الآيات: 61 - 65﴾

الدرس

16

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف صور تكريم الله تعالى للإنسان.
- 2- أن أستنتج أسباب طرد الله سبحانه إبليس من رحمته.
- 3- أن أستعيد بالله من وساوس الشيطان لأحظى بجوار الرحمن.

تمهيد

لما ذكر الله تعالى محنة رسوله ﷺ مع قومه وأهل زمانه حين حدثهم بالإسراء وشجرة الزقوم فكذبوه واستهزؤوا به؛ بين أن حال الأنبياء مع أهل زمانهم كان كذلك، ومنهم آدم عليه السلام الذي كان في محنة شديدة من إبليس بسبب كبره وحسده اللذين منعاه من طاعة مولاه والانقياد له حين أمره بالسجود لآدم.

فكيف كرم الله تعالى الإنسان؟ ولماذا طرد إبليس من رحمته؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ خَيْنًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ لَكَ آيَةً قَالَ كَرَّمْتُ عَلَىٰ رَبِّي آخِرَتَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْفِيلَةِ ۚ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ 62 قَالَ إِنِّي لَبِئْسَ بِمَنْعَةٍ مُّثَوِّفًا تَجْعَلَنِي

جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّقْبُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِاسِكَكْهُمْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأُجْلِبْ عَلَيْهِمْ
بِغَيْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

[سورة الإسراء: 61 - 65]

الفهم

الشرح :

كَرَّمْتُ : من الإكرام، وهو اسم جامع لكل ما يحمد.
لَا تَحْتَسِبُكَ دَرِيَّتُهُ : لأستولين على أولاده ونسله استيلاء قويا بالإغواء.
جَزَاءً مَّقْبُورًا : وافرا كاملا.
وَاسْتَفْزِزْ : استخف واخدع.
وَأُجْلِبْ عَلَيْهِمْ : صح فيهم.
غُرُورًا : الغرور: إظهار الشيء المكروه في صورة المحبوب الحسن.

استخلاص المضامين :

1- من كرم الله تعالى في الآيات؟ ومن طرد من رحمته؟

2- كيف واجه إبليس خبر طرده من رحمة الله؟

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: تكريم الله تعالى الإنسان وطرده إبليس من رحمته:

بعد أن ذكر الله تعالى طغيان المشركين وعبادتهم من لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً، بين في هذه الآيات أن سبب هذا الطغيان هو وساوس الشيطان، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّا فُلْنَا لَلْمَلَائِكَةِ أَنْ سَجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ خَيْناً ۖ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ منصوبة بفعل مضمر. واختلف في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فقيل: هو استثناء منقطع؛ لأن إبليس لم يكن من الملائكة. وقيل: هو متصل؛ لأن إبليس من الملائكة. وقوله: ﴿أَسْجُدُ﴾ استفهام إنكار وتعجب. وقوله: ﴿خَيْناً﴾ يصح أن يكون تمييزاً، ويصح أن يكون حالاً والعامل فيه " خَلَقْتُ ". والمعنى: واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم.

وقاس إبليس في هذه النازلة فأخطأ، وذلك أنه رأى الفضيلة لنفسه من حيث رأى النار أفضل من الطين، وجعل أن الفضائل في الأشياء إنما تكون بما خصها الله تعالى به، ولا ينظر إلى أصولها. وكفر إبليس بجهله صفة العدل من الله تعالى حين لحقته الأنفة والكبر، وكان أصل ذلك الحسد؛ ولذلك قيل: إن أول ما عصي الله به الحسد. وظهر ذلك من إبليس من قوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ قُلُودًا أَلَيْسَ كَرَمَتْ عَلَيَّ ۖ﴾. ومعنى ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾: أتأملت ونحوه، كأن المخاطب بها ينبه المخاطب ليستجمع لما ينصه عليه بعد، والكاف في قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ هي كاف خطاب ومبالغة في التنبيه، و﴿قُلُودًا﴾ نصب بـ ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ و﴿أَلَيْسَ﴾ نعت، و﴿كَرَمَتْ﴾ من الإكرام، وهو اسم جامع لكل ما يحمد.

ثانياً: طغيان إبليس وتوعده ذرية آدم عليه السلام:

وقوله تعالى: ﴿لَبِىَّ أَعَزُّ رَبِّ إِلَى يَوْمِ الْفِيلَةِ لَأَعْتَبُكَ وَدَرَيْتُ﴾، قوله: ﴿لَأَعْتَبُكَ﴾ معناه: لأميلن ولأجرن، وهو مأخوذ من تحنيك الدابة وهو أن يشد على حنكها بحبل أو غيره فتنقاد. قال الطبري: معناه: لأستأصلن. وعبر ابن عباس في ذلك بـ " لأستولين ". وقال ابن زيد:

لأضلن. وهذا تبديل للفظ لا تفسير.

وحكم إبليس بهذا الحكم على ذرية آدم من حيث رأى الخلقة مجوفة مختلفة الأجزاء وما اقترن بها من الشهوات والعوارض كالغضب ونحوه، ثم استثنى القليل لعلمه أنه لا بد أن يكون في ذريته من يتمكن في طاعة الله.

ولما سأل إبليس لعنه الله النظرة قال الله له: ﴿قَالَ أَنَا لَبِئْسَ بَعْدِي تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَلَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾، قوله: ﴿أَنَا لَبِئْسَ﴾. وما بعده من الأوامر هو صيغة افعل سيقى للتهديد، كقوله تعالى: ﴿إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: 39]. و﴿تَبِعَكَ﴾ معناه: في طريق الكفر الذي تدعو إليه، فالآية في الكفار وفي من ينفذ عليه الوعيد من العصاة. وقوله: ﴿جَزَاءً﴾ مصدر في موضع الحال. و﴿مَوْفُورًا﴾ مكمل.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَضَعْتَ مِنْهُمْ﴾ استفزز معناه: استخف واخدع حتى يقع في إرادتك، تقول: استفزني فلان في كذا إذا خدعك حتى تقع في أمر أراه. وقوله: ﴿بِصَوْتِهِ﴾ المراد بالصوت هنا: هو الغناء والمزامير والملاهي؛ لأنها أصوات كلها مختصة بالمعاصي، فهي مضافة إلى الشيطان، قاله مجاهد. وقيل: معناه بدعائك إياهم إلى طاعتك، قال ابن عباس: صوت الشيطان كل داع إلى معصية الله. والصواب: أن يكون الصوت يعم جميع ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ﴾ قوله: ﴿وَأَجْلِبْ﴾ أي: هول، والجلبة: الصوت الكثير المختلط الهائل. وقوله: ﴿بِغَيْلٍ وَرَجُلٍ﴾ قيل: هذا مجاز واستعارة تمثيلية، شبه حال الشيطان في تسلطه على الغاوين بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداء؛ للغلبة عليهم. والمعنى: اسع سعيك وابلغ جهدك. وقيل معناه: أن له من الجن خيلا ورجلا، قاله قتادة. وقيل: المراد: فرسان الناس ورجالهم المتصرفون في الباطل، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم، قاله مجاهد.

وقوله سبحانه: ﴿وَشَارِكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ عام لكل معصية يصنعها الناس بالمال، فإن ذلك المصروف في المعصية، هو خط إبليس. فمن ذلك البحائر وشبهها، ومن ذلك مهر البغي، وثنم الخمر، وحلوان الكاهن، والربا، وغير ذلك مما يوجد في الناس أبدا. وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ عام لكل ما يصنع في أمر الذرية من المعاصي، فمن ذلك الإيلاد بالزنا، ومن ذلك تسميتهم عبد

شمس، وعبد الجدي، وأبا الكويفر، وكل اسم مكروه. ومن ذلك الوأد الذي كانت العرب تفعله. ومن ذلك صنيعهم في أديان الأخرى، وغير هذا. ﴿وَعِدْنَهُمْ﴾ حذف المفعول للتعميم في الموعود به، أي: منهم بما لا يتم لهم، وبأنهم غير مبعوثين، فهذه مشاركة في النفوس. ثم أخبر الله تعالى أن ما يعدمه الشيطان إلا غرورا منه، فقال: ﴿وَمَا يَعِدُّ لَهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ثم بين الله تعالى أنه لا سلطان للشيطان على عباد الله الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي عِبَادِي لَأَيَسِّرَ لَهُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ سُلْكَهُنَّ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٌ﴾ هذا خطاب من الله تعالى لإبليس، وهي جملة مستأنفة استئنفا بيانيا ناشئا عن قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [الإسراء: 63]. وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَضَعْتَ مِنْهُمْ﴾ [الإسراء: 64] يفيد بأن فريقا من ذرية آدم لا يتبع إبليس. وقوله: ﴿عِبَادِي﴾ يريد المؤمنين في الكفر، والمتقين في المعاصي. وخصهم باسم العباد وإن كان اسما عاما لجميع الخلق، من حيث قصد تشريفهم والتنويه بهم، كما يقول رجل لأحد بنييه: إذا رأى منه ما يحب: هذا ابني، على معنى التنبيه منه والتشريف له. ومنه قول النبي ٢ لسعد بن أبي وقاص: " هذا خالي فليرني امرؤ خاله " [سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب سعد بن أبي وقاص]. والمراد بـ ﴿سُلْكَهُنَّ﴾ الملكة والتغلب. ثم قال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٌ﴾ والمعنى: وكفى بربك يا محمد حافظا للمؤمنين من كيد الشيطان وغروره، وقيما على هدايتهم.

ثالثا: مقاصد الآيات:

تهدف هذه الآيات إلى تحقيق مقاصد تربوية عديدة، أبرزها:

- بيان انقياد الملائكة لأمر الله تعالى بسجودهم لآدم عليه السلام، فهم عباد معصومون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.
- تكريم الله تعالى لآدم عليه السلام حيث خصه بسجود الملائكة؛ ليعلم البشر علو منزلتهم ورفعة مكانتهم عند الله.
- رحمة الله تعالى بعباده إذ أرشدهم إلى طريق الحق وعصم المخلصين منهم من وساوس الشيطان فلم يجعل له عليهم سلطانا.

- بيان خطورة الاستكبار وعدم الامتثال لأمر الله تعالى حيث توعّد الله تعالى إبليس ومن تبعه من ذرية آدم لامتناعه واستكباره عن السجود لآدم عليه السلام.

التقويم

- 1 - بماذا كرم الله تعالى الإنسان في هذه الآيات؟
- 2 - ما هي أسباب طرد إبليس من رحمة الله؟
- 3 - هل الأوامر في قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْ﴾ وما بعدها، حقيقية أم مجازية؟

الاستثمار

"وَجُمْلَةٌ ﴿فَالْأَرْأَيْتَ﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ جُمْلَةٍ ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ صِينًا﴾ بِاعْتِبَارِ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ اخْتِقَارِ آدَمَ وَتَغْلِيظِ الْإِرَادَةِ مِنْ تَفْضِيلِهِ. فَقَدْ أُعِيدَ انْكَارُ التَّفْضِيلِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَرْأَيْتَ﴾ الْمُفِيدِ الْإِنْكَارَ. وَ﴿أَرْأَيْتَ﴾ تَرْكِيبٌ يُفْتَتَحُ بِهَا الْكَلَامُ الَّذِي يُرَادُ تَحْقِيقُهُ وَالْإِهْنِمَامُ بِهِ. وَمَعْنَاهُ: أَخْبِرْنِي عَمَّا رَأَيْتَ، وَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ هَمْزَةٍ اسْتِفْهَامٍ، وَ (رَأَى) الَّتِي بِمَعْنَى عِلْمٍ، وَتَاءِ الْمُخَاطَبِ الْمَفْرَدِ الْمَرْفُوعِ، ثُمَّ يُزَادُ عَلَى ضَمِيرِ الْخِطَابِ كَافُ خِطَابٍ تُشَبَّهُ ضَمِيرَ الْخِطَابِ الْمَنْصُوبِ بِحَسَبِ الْمُخَاطَبِ وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا. وَهَذِهِ الْكَافُ عِنْدَ الْبَصَرِيِّينَ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى الْخِطَابِ الَّذِي تُفِيدُهُ تَاءُ الْخِطَابِ الَّتِي فِي مَحَلِّ رَفْعٍ، وَهُوَ يُشَبَّهُ التَّوَكِيدَ اللَّفْظِيَّ.

وَهَذَا الْكَلَامُ صَدَرَ مِنْ إِبْلِيسَ إِعْرَابًا عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ، وَإِنَّمَا شَرَطَ التَّأْخِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَعْمَ بِإِغْوَائِهِ جَمِيعَ أَجْيَالِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ فَلَا يَكُونُ جِيلٌ آمِنًا مِنْ إِغْوَائِهِ، وَصَدَرَ ذَلِكَ مِنْ إِبْلِيسَ عَنْ وَجْدَانٍ أُلْقِيَ فِي نَفْسِهِ صَادَفَ مُرَادَ اللَّهِ مِنْهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَهُ قَدَّرَ لَهُ أَنْ يَكُونَ غُنْصَرٌ إِغْوَاءٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ يُغْوِي كَثِيرًا مِنَ الْبَشَرِ وَيَسْلُمُ مِنْهُ قَلِيلٌ مِنْهُمْ."

[التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور: 15/ 150 151 (بتصرف)]

أتأمل النص وأجيب عن الآتي:

- 1 - أوضح ما تشتمل عليه جملة ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ﴾ من معان.
- 2 - لماذا طلب إبليس إنظاره إلى يوم القيامة؟ ولماذا سلط على بني آدم؟

الإعداد القبلي

أتأمل الآيات: 66 - 69 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

- 1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: يُزَيِّجُ - يَخْفِيفُ - حَاصِبًا - فَاصِبًا - تَبِيعًا .
- 2 - ما هي النعم التي امتن الله تعالى بها على الإنسان؟ ولماذا هدد من جردها؟
- 3 - أبحث عن نوع الاستغراق الذي يفيد لفظ ﴿إِلَٰهِنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ إِلَٰهِنَا﴾ كَغُورًا ، وأوضح الفرق بين الاستغراق الحقيقي والعرفي.